تاريخ الادبيات العربية

(تابع لما في الجزء السابق)

ومن ذلك ما ذكرهُ في ترجمة البحتري (ص ٨٤) من ان ابا العلآء المعرّي كان يقول ان ابا تمام والمتنبي حكيمان وانما الشاعر البحتري . وهذا القول انما هو للمتنبي نفسهِ لا للمعرّي كما ذكرهُ البديعيّ في الصبح المنبي عن حيثية المتنبي قال « وعلمآء الادب مختلفون في شعرهِ فمنهم من يرجّحهُ على أبي تمّام والبحتري ومنهم من يرجّحهما عليهِ ومنهم من يرجح ابا تمام ومنهم من يرجح البحتري . وقيل سُئل المتنبي عن مثل ذلك فقال انا وابو تمام حكيمان والشاعر البحتري . يريدانهما قد ذهبا في شعرهما مذهب الحكمآء في ارسال الامثال وايراد الحِكَم والبحتري اخذ مأخذ الشعرآء في رقة الغَزَل وانسجام العبارات » . انتهى

وذكر بعد ذلك (ص ٩٢) انهُ حدثت مناقشة بين المتنبي وخالويه اللغوي . وصوابهُ ابن خالويه . وعكس هذا قولهُ في صفحة ١٠١ ابن كشاجم وانما هو كُشاجِم وهو لقبٌ لهُ قيل رُكِّب من اوائل كلماتٍ كان يوصف بها فأُخذت الكاف من كاتب والشين من شاعر والالف من اديب والجيم من جميل والميم من مغنٍّ . على انهُ كثيراً ما يغلط في تحرير الاسمآء كضبطهِ علقمة بن علاثة (ص ٢٥) بفتح العين من علاثة وتشديد اللام وانما هو عُلَاثة بضم اولهِ وتخفيف اللام بوزن ثُمامة . ومثلهُ ضبطهُ بني عمير قبل ذلك بفتح العين وكسر الميم وضبطهُ قريظة (ص ٢٧) بالوزن نفسهِ وصوابهما عُمَير وقُرَيظة بضمّ فقتح فيهما

ثم ذكر ان كافوراً الاسود وانوجور كانا وزيرين للاخشيد والصحيح ان كافوراً كان عبداً عند الاخشيد وقد كان من خبرهِ ما ذكرهُ صاحب الصبح المنبي قال «كان هذا الأسوَد لقوم من اهل مصر يُعرَفون ببني عيّاش يستخدمونهُ في حوائج السوق وكان مولاهُ يربط في رأسهِ حبلاً اذا اراد النوم فاذا اراد منهُ حاجةً يجذبهُ بالحبل لانهُ لم يكن ينتبه بالصياح . وكان غلمان ابن طغج (اي الاخشيد) يصفعونهُ في الاسواق كلما رأوهُ فيضحك فقالوا ان هذا الاسود خفيف الروح . وكلم ابو بكر بن طغج صاحبهُ في بيعهِ فوهبهُ لهُ فاقامهُ على وظيفة الخدمة» . انتهى المقصود منهُ . وقال الذهبي «اشتراهُ الاخشيد بثمانية عشر ديناراً ثم تقدم عندهُ لعقلهِ ورأيهِ الى ان صار من كبار القواد» . اهـ . واما انوجور فقد كان ابن الاخشيد لا وزيرهُ وهو الذي قلّد الملك بعد ابيهِ بامر الخليفة المطيع لله العباسي . قال ابن الاثير «وفي هذه السنة (اي سنة اربع وثلاثين وثلاث مئة) مات الاخشيد ابو بكر محمد بن طغج صاحب ديار مصر ووُلّي الامر بعدهُ ابنهُ ابو القاسم انوجور فاستولى على الامر كافور الخادم الاسود وهو من خدَم الاخشيد وكان ابو القاسم صغيراً وكان كافور اتابكهُ » . انتهى ببعض اختصار

ثم تعرّض للكلام على شعر المتنبي فترجم بيتاً من قصيدتهِ في سيف الدولة التي مطلعها « الرأيُ قبل شجاعة الشجعانِ » وهو قولهُ

في جحفلٍ ستر العيونَ غبارُهُ فكانما يبصرنَ بالآذانِ

فقال في ترجمتهِ ما معناهُ « ان ممدوحهُ كان يمشي في رأس جيشٍ ثار غبارهُ حتى اظلمت العيون فكان الجنود كانهم يبصرون بآذانهم » . فجعل

الضمير من قولهِ « يبصرنَ » للجيش كانهُ توهم انهُ يعود على الجحفل المذكور في صدر البيت وهو معذورٌ في ذلك لمكانهِ من العجمة وان كان حاصل المعنى واحداً . وانما الضمير للجياد التي ذكرها قبل ذلك في قولهِ

قاد الجياد الى الطعان ولم يَقُد الا الى العادات والاوطانِ

واراد بذلك وصف ما كانت عليهِ تلك الجياد من معرفة آداب الحرب لا وصف المعمعة وشدّة غبارها لانهُ يقول قبل البيت المذكور

ان خُلّيَت رُبطت بآداب الوغى فدُعآؤها يُغنِي عن الأرسانِ

اي انها لتأدُّبها بتلك الآداب اذا خُلّيت لم تبرح من مكانها فكأنها مربوطة واذا دُعِيت انقادت بالصوت كما تنقاد بالرسن ولا يخفى ما في هذا الوصف من الابداع . قال « بيد أن هذه الاختراعات السمجة للنبيّ الكذاب (يعني المتنبي) ومعاصريهِ راجت اعظم رواج حتى غلبت على الشعر العربي فلذلك كان لا يزداد الا اغراقاً في الغلوّ والمجاز المستكرَه » . اه قلنا ما كان اغناهُ عن هذا الانتقاد في مثل هذا البيت بعد ما علمت من غرض المتنبي فيهِ وان المنتقد لم يدرك منهُ الا ما تبادر اليهِ من ظاهرهِ . اجل لا ننكر ان للمتنبي وغيرهِ من شعرآء المولَّدين مبالغاتٍ مُنكَرة كما نبّهنا عليهِ في هذه المجلة في كلامنا على الشعر ولو انهُ اخذ عليهِ مثل قولهِ يصف خيلاً

عقدت سنابكُها عليها عِثْيَراً لو تبتغي عَنَقاً عليهِ لأمكنا

يعني ان حوافر هذه الخيل عقدت فوقها غباراً كثيفاً لو شآءت ان تركض فوقهُ لكان ذلك الغبار يحملها كما تحملها الارض . أو مثل قولهِ يصف خيلاً اخرى

يُقبِلُهم وجهَ كل سابحةٍ أربعُها قبل طَرْفها تَصِلُ

يريد انها لشدة سرعتها تقع قوائمها ورآء منتهى بصرها لكان لكلامهِ موضعٌ من الاصابة لان مثل هذا يتعدى طور الامكان ولا يجوز مثلهُ في المقامات الجدّية كالمدح والرثآء ولا سيما مدح الملوك والكبرآء ولكنهُ اليق بباب الهزؤ والسخرية كما في قول بعضهم في خطيبٍ كبير الانف

لك انفٌ يا ابن حربٍ أِنفت منهُ الانوفُ

انت في القدس تصلي وهو في البيت يطوفُ

وقول الآخر يصف امرأةً

أُنبئتُ ان فتاةً كنت اخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم في الطولِ

عرقوبها مؤخَّر قدمها . قيل ان ابن سيرين كان يتمثل بهذا البيت فيضحك حتى يسيل لعابهُ . وربما استُحسِن مثل هذا في مقام الاستعطاف أو التهويل أو ما اشبه ذلك مما يراد بهِ تجسيم الخيال وتعظيم وقعهِ في النفوس كقول أبي تمّام

دَنِفٌ يجود بنفسهِ حتى لقد امسى ضعيفاً أن يجود بنفسهِ

وقول الآخر

اذا ما غضبنا غَضبةً مُضَريةً هتكنا حجاب الشمس او مَطَرَتْ دَما

ولكنك اذا تأملت بيت المتنبي لم تجد فيهِ شيئاً من ذلك لان الغبار اذا كثر وتلبد حجب ما ورآءهُ بالضرورة فلا يبقى الا ان يُهتدَى فيهِ بالصوت فيُعرَف بهِ مكان الصائت وحينئذٍ يكون السمع قد ناب عن البصر وكل ذلك تصويرٌ للواقع ليس فيهِ شيءٌ من الغرابة ولا الغلوّ كما ترى

(ستأتي البقية)